

دراسات في تاريخ المحلات السكنية في حوض الطور

بقلم
هاينتس جاوبه

لقد كان العدد الكبير للمحلات السكنية المهجورة (الخرابات) في حوض الطور مفاجأة بالنسبة لأعضاء المشروع إبان ممارستهم العمل في هذه المنطقة قبل صيف عام ١٩٨٢ ، وبشكل خاص بالنسبة لزميلي وصديقي هـ. كوب . وبالتالي قام هؤلاء بتشجيعي على إجراء مسح لهذه الخرابات في صيف عام ١٩٨٢ . وأود هنا أن أعرض عليكم الطريقة التي اتبعتها في دراسة هذه المنطقة التي لم تأت على ذكرها المصادر الكتابية التي نعرفها . وأود أيضاً أن أوجز عليكم النتائج الأولية لعملية التقييم التي لم تنته بعد .

يمر تاريخ اليمن بمنطقة حوض الطور مرور الكرام . ولم تكن القبائل الجبلية تكثرت كثيراً بـسكان هذا الحوض . أما البقايا الحضارية لسكان الحوض فهي ما زالت إلى حد بعيد واقفة عند مستوى فترة العصر الحجري البرونزي . لم يمارس هؤلاء الزراعة على مستوى واسع . وهكذا بقوا على هذه الحالة من الاكتفاء لعدة قرون عديدة ، لا بل آلاف السنين . ونادراً ما أثاروا اهتمام الغير . وهم أنفسهم لا يهتمهم إلا العيش يوماً بعد يوم . أما الماضي والمستقبل فقد كانا بالنسبة لهم مفهومي غامضين . ونادراً ما يعرف الواحد منهم أكثر من اسم جده ، والذي كثيراً ما يأخذ طابعاً أسطورياً .

وينبغي على المؤرخ الراغب بدراسة هذه المنطقة أن يقوم بالتجول فيها، وهذا يعني :

- المسح الأثري الشامل للمنطقة لغرض استخراج أية معلومات تاريخية .

- جمع الحكايات المروية .

- محاولة العثور على مصادر كتابية .

وقد حاولت التوصل إلى الأهداف التالية :

- الإحاطة بأكبر عدد من المحلات السكنية المهجورة .

- تحديد العلاقة بين المحلات المهجورة والعامرة منها .

- التوصل إلى مؤشرات تساعد على تحديد التابع الزمني للمحلات السكنية المهجورة .

لم يكن بمقدوري إجراء مسح أثري شامل لحوض الطور في فترة الأسابيع الأربعة التي كانت متوفرة لدي . لهذا قررت اختيار مناطق محددة من الحوض ، لها علاقة بخصائصه الطبيعية ، مقدراً أن النتائج ستكون مختلفة باختلاف مواقع المناطق المختارة . وقد وقع اختياري على ثلاث مناطق تقع في الجنوب الغربي والشمال الغربي والجنوب الشرقي من الحوض .

تحد الحوض من الجنوب الغربي منه منحدرات جبال النميرة . وتكمن أهمية هذه المنطقة في أنها قد تساعدنا على تحديد العلاقة بين سكان الجبل والحوض وذلك بدراسة توزيع المحلات السكنية في الماضي والحاضر . ويصب في الشمال الغربي من الحوض وادي لاعة في وادي مور . وهنا يتوقع

المرء وجود محلات سكنية قديمة مهمة نسبياً، وذلك لتوفير المياه في هذه المنطقة.

أما في المنطقة الواقعة إلى الجنوب الشرقي، حيث يشكل وادي لاعة ممراً يربط سكان الجبل بسكان الحوض، فقد كنت أتوقع الحصول على نتائج حول تأثيرات الجبال على الحوض والعكس، أي نتائج مكملية ومغايرة للنتائج المتوصل إليها في المنطقة الواقعة إلى الجنوب الغربي.

ولم يخب أملني بالنسبة لما توقعته. إذ كانت النتائج مختلفة باختلاف المناطق. وقبل أن أعرض عليكم هذه النتائج أود أن أعرفكم بطريقة البحث التي اخترتها، وخاصة أن طريقة البحث هذه تجمع أساليب مختلفة، الأمر الذي أجده مهماً، إذ كيف يمكن للمرء أن يقيم محلات سكنية مهجورة لا يعرف أي شيء عن عماراتها وبقاياها الحضارية؟

ينبغي على المرء معاينة القرى الحالية مفتشاً عن تلك الأشياء التي عثر عليها في القرى المهجورة. ويشمل ذلك البقايا المعمارية وبقايا الأدوات المستعملة يومياً من قبل سكان الخرابات، وبشكل خاص الخزف.

تتألف المحلات السكنية في حوض الطور ظاهرياً من بيوت وأكواخ دائرية ذات غرفة واحدة، ومصنوعة من الحجر أو الخشب أو الطين وتغطيها سقوف مخروطية من القصب. ولهذه البيوت الوظائف الثلاث التالية:

- غرف للسكن والنوم.
- غرف للجلوس و«الاستقبال».
- مطابخ.

تتألف غرف السكن والنوم من جزء سفلي هو عبارة عن حجر مربع منخفض أو دكة طينية، وجزء علوي يتألف من أغصان دقيقة أو جذوع مغطاة

بالفروع أو القصب . إلا أن هذه الغرف قد تكون على شكل بيت مستطيل من غرفة واحدة من الحجر أو الطين ومغطى بسقف من الخشب .

وتدل هذه البيوت على أن أصحابها كانوا من الموسرين ، إلا أنه نادراً ما يرى هذا النوع من البيوت في الآونة المتأخرة .

أما غرف الجلوس فمبنية كلية من الخشب والقصب . والجزء السفلي منها ، الأسطواني الشكل ، مفتوح لتأمين جريان الهواء . وبالإمكان اعتبار هذه الغرف كأكواخ متينة وجيدة للوقاية ضد الشمس والمطر .

أما المطابخ فهي مبنية مثل غرف السكن والنوم . وهي مسقوفة جزئياً فقط لتأمين صعود الدخان . وأحياناً استعملت هنا طريقة البناء بالخشب كلية ، كما هو الحال بالنسبة لغرف السكن . إلا أن الجدران الجانبية ، بعكس غرف السكن ، مقواة بالجدوع والقصب .

أما النوم فيتم على دكات خشبية أو على الأرض . وتستعمل القفف والأكياس للخن ولحفظ القليل من الحاجيات الخاصة . وتوضع الأواني على الرفوف البارزة من كسوة الطين للجدران الداخلية أو تعلق على أوتاد خشبية في الجدران . ويتم الطبخ عادةً على فرن مؤلف من ثلاثة أجزاء : فرن للخبز العادي ، والموقد الأساسي للفرن ، وموقد لخبز المرقوق .

إذن تتألف الوحدة التي أطلقنا عليها اسم بيت من غرفة السكن والنوم ، وغرفة الجلوس ، والمطبخ ، بالإضافة إلى زريبة للحيوانات مصنوعة من الجدوع والقصب . إلا أنه قلما توجد هذه الوحدة منعزلة ، إذ يجد المرء في معظم الحالات وحدة عائلية كبيرة تضم عدداً من غرف السكن والنوم حول مطبخ مشترك وغرفة للجلوس ، وتحاط هذه الوحدة عادةً بسياج من الأغصان الشائكة . وتقيم في هذه الوحدات عدة عائلات مؤلفة من الأب وأبنائه

وعائلاتهم من جهة ، والإخوة وعائلاتهم من جهة أخرى . وليس من النادر أن يجد المرء عدداً من هذه الوحدات مندمجة بشكل أود أن أطلق عليه اسم ضيعة - عشيرة ، حيث يرجع الذكور أصلهم إلى جد واحد مشترك .

وهذا ما أقصده بالمحلة السكنية في حوض الطور ، أي تلك المحلة التي تضم البيت الانفرادي من جهة ، وهذا نادر ، ووحدة العائلات الكبيرة من جهة أخرى ، سواء كان ذلك بشكل منفرد ، أو مجموعة مع بعضها بأشكال مختلفة .

وعندما تهجر هذه المحلات السكنية فإنه لا يبقى من بيوتها بعد عدد من السنين على أكثر حد إلا بقايا دائرية من الحجارة . والمعلومات التي يمكن استخلاصها من هذه البقايا لا تتعدى الاستنتاج بأنه كانت توجد هنا محلة كبيرة أو صغيرة ، ومن الصعب استنتاج غير ذلك في معظم الحالات . إلا أن هذه المعلومات تشكل بالنسبة لي المعلومات الأولية من ناحية كمية ، ومن ناحية مساحية . وبالإمكان مقارنة المحلات السكنية المهجورة بالمحلات السكنية العامة . ولا شك أن هذه المقارنة تفسح المجال نحو الفصل بين ما هو قائم «اليوم» وبين ما كان قائماً «قبل اليوم» .

إن الخطوة التالية هي الإحاطة بأقدم فترات زمنية لما «قبل اليوم» وتحديد متابعتها . وتساعدنا هنا كسر الخزف ، وهي كسر خزف أواني من أنواع مختلفة ، والتي كان سكان حوض الطور يستعملونها وما زالوا إلى يومنا هذا ، إلى جانب أوعية الحليب والزيت المصنوعة من القرع المفرغ . وتفسح الكسر الخزفية المجال نحو تحديد موقع تلك المحلات السكنية المبنية بالطين والخشب ، والتي لم يبق من عمارتها بعد عدد ضئيل من السنين أي أثر .

وكما هو الحال بالنسبة للآثار المعمارية فإنه ينبغي بالنسبة للخزف

معرفة ما هو موجود اليوم . لهذا قمت بالاطلاع على ما هو موجود في البيوت والأسواق وعند الخزافين ، وذلك حتى أتمكن من معرفة الخزف المستعمل اليوم ، أي الأنواع المختلفة من الخزف المستعملة من قبل سكان حوض الطور ، ووظائف هذه الأنواع وأصلها وطريقة صنعها .

وبالإمكان تقسيم خزف سكان حوض الطور إلى ثلاث مجموعات :

- ١ - الخزف البسيط للاستعمال اليومي .
- ٢ - خزف أكثر جودة للاستعمال اليومي .
- ٣ - الخزف الجيد .

وتضم المجموعة الأولى أواني المطبخ والقدور والصحون وأباريق الماء . وجميع هذه الأواني هي غير مصقولة وتصنع في حوض الطور أما باليد أو باستعمال دولاب خزاف بطيء . وقد كانت الكسر من هذا النوع موجودة في كل خرابة . ولا يمكن الاستخلاص من كسر الفخار هذه أي تتابع زمني .

أما المجموعة الثانية فتضم الأواني المصقولة ، التي لا تختلف عن بعضها البعض إلا بالحجم : أ - أقداح ، ب - أواني حساء ، ج - أواني الأكل . ولا يمكن التوصل من شكل هذه الأواني إلى أي تتابع زمني . إلا أنه كان بالإمكان تحديد بعض الاختلافات الزمنية من الألوان المستعملة في الصقل ومن الرسوم المطلية على الأواني .

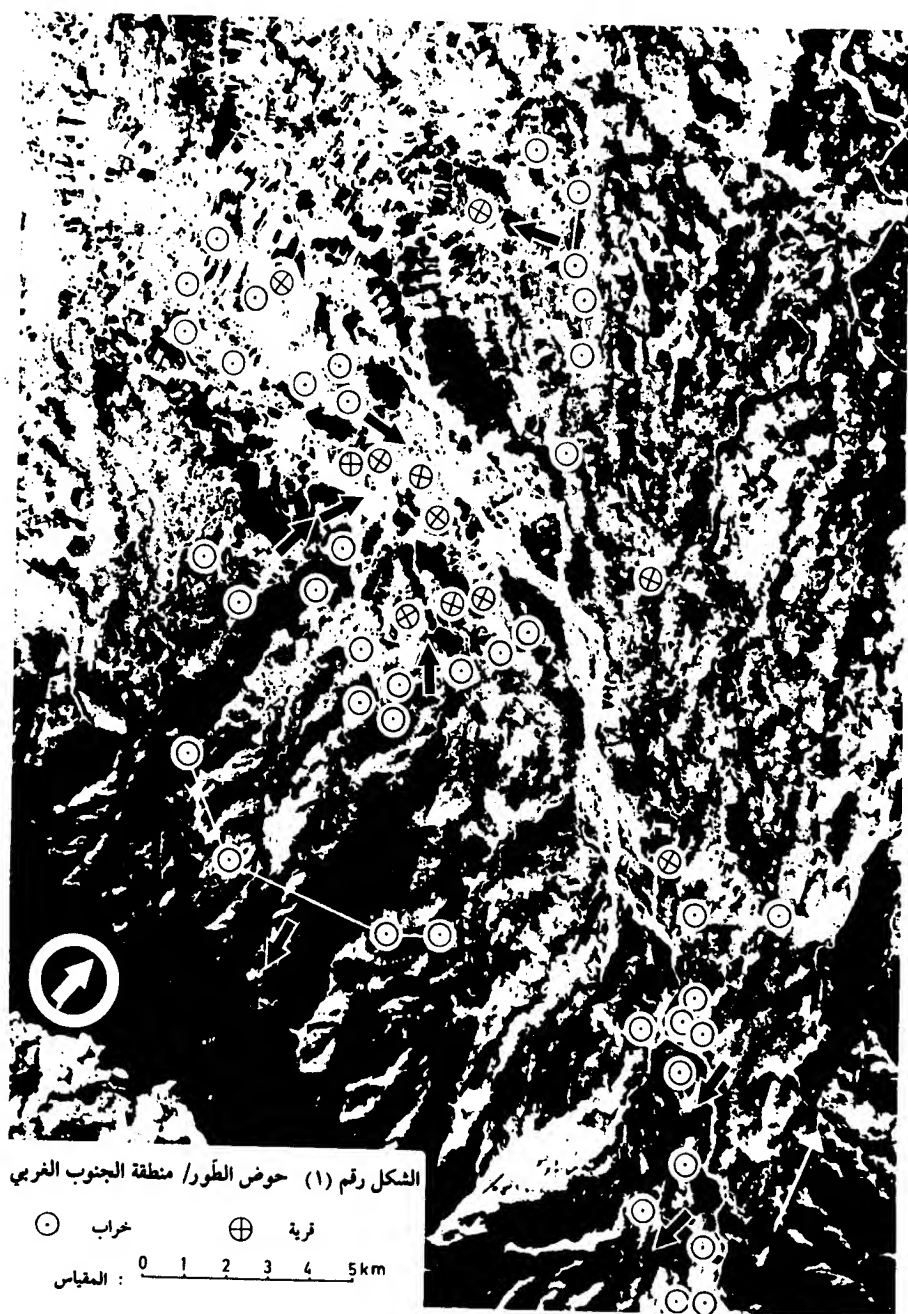
أما المجموعة الثالثة فهي الخزف من النوع الجيد والمصقول والخزف الصيني ، والتي تم استيرادها من مناطق نائية ، ولهذه الأنواع أهمية كبرى في تحديد الفترات الزمنية . إذ يعكس هذا الفخار الأساليب الشائعة في عصر ما ، ولهذا فهي معرضة للتغير بتغير العصور ، وتتبع الأنماط السائدة في العالم الإسلامي .

وفيما يلي التقسيم الزمني الأولي لخزفيات حوض الطور :

الفترة	مادة المجموعة الأولى	مادة المجموعة الثانية	مادة المجموعة الثالثة	عمر المادة
١	للاستعمال اليومي ، غير مصقول	رمادي - أخضر مصقول	زجاج ، أواني من الخزف الصيني الحديث أو البلاستيك	١٠ سنين
٢	للاستعمال اليومي ، غير مصقول	رمادي - أخضر مصقول	أواني من الخزف الصيني غير القديم	٢٠ سنة
٣	للاستعمال اليومي ، غير مصقول	رمادي - أخضر مصقول	أواني من الخزف الصيني القديم ، مطلية جزئياً وغيرها مطلي بخلفية بيضاء	٥٠ سنة
٤	للاستعمال اليومي ، غير مصقول	بني - أخضر مصقول	خزف مطلي بخلفية بيضاء	١٠٠ سنة
٥	للاستعمال اليومي ، غير مصقول	أصفر - أخضر مصقول	خزف مطلي بخلفية بيضاء	١٢٠ سنة
٦	للاستعمال اليومي ، غير مصقول	أصفر - أخضر مصقول	مصقول بني أزرق	٢٠٠ سنة
٧	للاستعمال اليومي ، غير مصقول	أصفر - أخضر مصقول	مثل ٦ ، بالإضافة إلى تقليد الخزف المملوكي	٢٠٠ سنة أو أكثر

تتابع زمني للخزف الذي عثر عليه في حوض الطور : محاولة أولية .

بالإضافة إلى نتائج المسح الأثري فإن هذا التتابع الزمني يشمل أيضاً وبالدرجة الأولى تلك المعلومات الموثوق بها والتي حصلت عليها من عائلات الشيوخ . فقد كان بالإمكان الحصول من هذه العائلات على معلومات تسبق جيل الجد . بالإضافة إلى أنه كانت بحوزة هذه العائلات بعض المصادر المكتوبة كقوائم النسب والكفالات والعقود والحسابات إلخ ، والتي على الأقل تجعلنا نتعرف على سكان المنطقة على مستوى غير



المستوى المجرد للخرابات وموقعها وتتابعاتها الزمنية .

وأنتقل الآن إلى المناطق الثلاث التي تمت فيها الدراسة ، عارضاً عليكم بعض النتائج الأولية ، والتي آمل أن لا تبدو لكم بديهية جداً .

نلاحظ أن أشد تركيز لتطور المحلات السكنية موجود في المنطقة الجنوبية الغربية ، حيث لا يتعدى تاريخ معظم الخرابات فيها المئة عام . إذ خلال فترة المئة عام السابقة هذه ، قام قاطنو المحلات السكنية الصغيرة والمحمية جيداً بالانتقال من الأعالي المشرفة على الوديان ومنحدرات الجبال ليستقروا بالقرب من الوديان والحقول . وقد جاء ذلك نتيجة ازدياد الأمان العام منذ حلول هذا القرن .

وإلى الجنوب من المنطقة السابقة وعلى علو ٤٠٠ م من مستوى الحوض ، تقع أربع خرابات في أرض يستعملها الرعاة الآن كممر لهم ولمواشيهم ، صاعدين من الحوض إلى الجبل . وقد كانت هذه المحلات السكنية الصغيرة للرعاة من سكان الجبل ، لغرض حماية القطعان من موقع أمامي .

ونلاحظ وظيفة مماثلة يقوم بها سكان الجبل في الفسحة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من المنطقة المذكورة . إذ توجد هنا عدة خرابات لبيوت مستطيلة الشكل . والبيوت من هذا النوع هي كما نعرف خاصة بسكان الجبال . وقد وجدت فيها بقايا آلات ، هي أيضاً شبيهة بالآلات المستعملة من قبل سكان الجبال ، كالمطحنة اليدوية العالية . وتقع هذه البيوت في قلب منطقة المدرجات . والمدرجات طابع مميز لحضارة الجبال .

ونجد في الشمال الغربي شكلاً آخر من أشكال تجمع المحلات السكنية . تتواجد المحلات السكنية في الجزء الغربي حول الحقول أو في السهول الصغيرة . وقد أبرزت في شكل ٢ أقدم الخرابات لأوضح لكم ما



أقصده هنا. ففي الأسفل من منتصف الصورة تجدون هذه العملية في أبسط أشكالها. فالنواة هنا عبارة عن خرابة كبيرة من البيوت الدائرية عمرها ٢٠٠ سنة على أقل تعديل. وموقعها ممتاز من الناحية الدفاعية. وفي فترة متأخرة انتقل سكان الخرابة إلى مرتفع أقل انخفاضاً بالقرب من الحقول، أما المحلة السكنية اليوم فتقع على حافة الحقول مباشرة.

وبشكل مماثل نلاحظ أيضاً في الجزء الشرقي من منطقة المسح هذه تجمعاً من الأماكن الواقعة على أطراف الوديان والحقول. وهي أكثر ارتفاعاً ومحمية بشكل أفضل. ويبدو هذا الأمر واضحاً في الصورة إلى اليمين في الأعلى. وتقع أقدم الخرابات محجوبة عن الأنظار في منطقة مرتفعة، أما المحلات السكنية الحالية فتقع مباشرة داخل الحقول.

ويتبع ذات النظام تجمع المحلات السكنية الموجودة في الجنوب الشرقي من منطقة المسح (شكل ٣). إذ هجرت المحلات السكنية الموجودة في مرتفعات الجبال والمطلة على السهول والوديان الصغيرة. أما المحلات السكنية الراهنة فتقع إلى جانب الحقول.

ونلاحظ نفس النمط بالنسبة لتجمع الحصون أو بيوت عائلات الشيوخ في المنطقة. فقد كانت حصون الجيل الأول والثاني والثالث (المشار إليها بالأرقام في شكل ٣) موجودة في الجبال. إلا أنهم قاموا خلال الجيلين السابقين ببناء بيوتهم في السهل بالقرب من الحقول.

ويواجه المرء في هذه المنطقة البيوت المستطيلة للجبال والبيوت الدائرية للحوض في ذات الوقت، الأمر النادر في المناطق الأخرى من اليمن. وهذا يشير إلى تغلغل سكان الحوض في المناطق المنخفضة من الجبال، وإلى انحسار سكان الجبل في المناطق الجبلية الفعلية. وهذه الحركة تؤكد علاقة سكان الوادي إلى اليمين في الصورة بسكان الجبل،



حيث يقدم سكان الوادي لأولئك نصف محصولهم الزراعي .

هكذا كان أسلوبه في العمل وهذه هي النتائج الأولية الخاصة بتاريخ تطور المحلات السكنية . وعندما تسنح لي الفرصة لإجراء دراسة أكثر عمقاً للبقايا الآثرية فإن هذا سيعمل على توضيح التابع الزمني بشكل جوهري ، وإلى العودة وراء تاريخ الـ ٢٠٠ سنة الذي توصلت إليه حتى الآن . وهكذا يصبح بالإمكان وضع الخطوط العريضة لتاريخ منطقة معينة بعد تحديد التغيرات المتنوعة في تطور المحلات السكنية ، كما فعلنا بالنسبة للمنطقة المعنية في هذا البحث ، مع الاستعانة بمصادر أخرى .

دراسات في تاريخ المحلات السكنية في حوض الطور

طالما أن المصادر المكتوبة نادراً ما تتطرق إلى تاريخ التهامية الجبلية، فإنه من غير الممكن إطلاق أحكام أولية حول تطور المحلات السكنية، إلا بعد الاستعانة بأساليب علم الآثار وجمع المعلومات المروية. فبالنسبة لحوض الطور كان بالإمكان التوصل إلى تتابع زمني نسبي لتطور المحلات السكنية، وذلك بعد إجراء تقييم للخزف من هذا الحوض. وقد كانت إحدى النتائج المتوصل إليها هي الميل نحو انتقال المحلات السكنية من المواقع المحمية والبعيدة عن الحقول، حتى تصبح في مواقع قريبة من تلك الحقول.